تقديم

بقلم الدكتور محمد عمارة

جمع آية الله مرتضى مطهري (1920- 1980م) في دراسته بين "الحوزة" و"الجامعة" أي الأصولية والتجديد كما اهتم بدراسة الأدب والمنطق والأصول وعلم الكلام والفلسفة الإسلامية والحكمة، واللغة العربية، والأدب العربي، والفارسي. والتحق مطهري بركب الجهاد السياسي والديني ضد النظام الشاهنشاهي الإيراني .. فانضم إلى منظمة فدائيي إسلام، في أوائل خمسينات القرن العشرين .. وأسس في طهران 1953م الجمعية الإسلامية للطلاب .. وفى 1964م اعتقل مع آية الله الخميني في انتفاضة المدرسة الفيضية .. وعمل على تشكيل جمعية علماء الدين المناضلين.

واشتغل بالتدريس.. بكلية العلوم الدينية - بجامعة طهران.. حيث حصل على الدكتوراه في الفلسفة. وامتدت اهتماماته السياسية إلى القضية الفلسطينية منذ 1970م. كما أطل على الساحة الفكرية والدينية الإيرانية من خلال الخطابة في الخمسينيات، وانخرط في صفوف الثورة الإيرانية التي قادها الخميني في سبعينيات القرن العشرين، فكان مستشاراً للخميني.

وعندما استشهد مطهري -غيلة- في 1/ 5/ 1980م أي بعد أقل من عام على انتصار الثورة بكاه الخميني كما لم يبك ابنه.. وأعلن الحداد عليه وتلقى العزاء فيه.

ولقد ترك مطهري أكثر من خمسين كتاباً.. مثلت صرحاً من الإبداع الفكري، جعلت منه واحدا من أبرز أعمدة الفكر في الفضاء الشيعي المعاصر.

وفى هذا الكتاب "نقد الفكر الديني عند الشيخ مرتضى مطهري" الذي يمثل خلاصة لمشروعة الفكري، تتجلى عبقرية هذا الفيلسوف المجدد، الذي جمع بين الأصولية وفقه الواقع المحلي والعالمي وبين النظرة المستقبلية للإسلام والمسلمين.

-1-

إن مفتاح الشخصية الفكرية للشهيد مطهري هو الأفق الفلسفي، الذي يفتح منافذ العقل على الشكوك والتساؤلات.. وعن هذه الخصيصة الفكرية يقول:

"إنني، وخلافاً لكثير من الأفراد لا أنزعج إطلاقاً من طرح التشكيكات وإلقاء الشبهات فيما يتعلق بالقضايا الإسلامية، رغم ما أتمتع به من الإيمان بهذا الدين والرغبة الجامحة فيه، بل يسرّني ذلك كثيراً، لأنني أعتقد وقد شاهدت ذلك بالتجربة العملية خلال أيام حياتي، بأن هذا الدين السماوي المقدس كلما تعرض في جبهة من الجبهات للمواجهة والهجمات، خرج من المعركة قوياً عزيزا ظاهرا متلألئاً. إن ميزة الحقيقة هي أن الشك والتشكيك يساعدان على إشراقها أكثر فأكثر، فالشك مقدمة اليقين والتشكيك سلم البحث والتنقيب. وقد جاء في رسالة (ميزان العمل) للغزالي (450-505هـ/ 1058-1111م) ما نصه: "...ولو لم يكن في مجاري هذه الكلمات إلا ما يشكك في اعتقادك الموروث لتنتدب للطلب، فناهيك به نفعاً، إذ الشكوك هي الموصلة إلى الحق. فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقى في العمى والضلال"[1] (ص207).

ثم يمضي مطهري فيتحدث عن تراجع الفضاء الثقافي والفكري عن هذا المنهاج، فيقول: "فيما سبق كان المستوى الفكري للناس هابطاً، وقلما كان الناس يثيرون الشكوك والتساؤلات، أما الآن فالأمر يختلف، ومن الطبيعي حيث يرتفع المستوى الفكري درجة فإن تساؤلات جديدة تطرح بينما لم تكن

(1) الغزالي، أبو حامد. **ميزان العمل**. القاهرة: المطبعة العربية، ط2، 1432هـ، ص165.

تثار في السابق، ويجب علينا معالجة الشك والتردد، والإجابة على التساؤلات والإشكاليات الفكرية.

فنحن الآن نعيش عصر العلم والشك والتردد، إننا نعيش عصراً مليئاً بالشبهات التي تثار حول الإسلام ويزداد فيه المخالفون للإسلام.

"دعوهم يقولوا ويكتبوا ويعقدوا الندوات ويثيروا الإشكالات، حتى يكونوا دون إرادة منهم وسيلة انبلاج حقائق الإسلام" (ص113، 118).

-2-

في تشخيص مطهري للتخلف الفكري والانحطاط الثقافي اللذين أصابا الحياة الدينية للمجتمع الشيعي، أبصر المسؤلية الكبرى التي يتحملها "المنهج الإخباري" الذي ساد الفكرية الشيعية، والذي جعل اعتماده الأول والأكبر على "الأخبار... والروايات" بعد استبعاده القرآن.. والعقل.. والإجماع.. والاجتهاد. فعلى "الأخبار .. والمرويات" التي لم تعرض على القرآن ولا على العقل قامت الفكرية الشيعية التي مثلت انحطاط هذا الفكر لعدة قرون.. وعن هذه الحقيقة يقول الشهيد مطهري:

"قبل نحو أربعة قرون شهدت الأوساط الشيعية حركة سُميت بالحركة الإخبارية.. هيمنت على عقول الناس ثلاثة قرون.. كانوا [الإخباريون] يرفضون منهج الاجتهاد.. ويرجعون مباشرة إلى الأخبار المروية.. ويستلهمون أحكام الشريعة منها.. وكانوا يشكلون أبرز مظاهر الجمود..

لقد عارضوا حجية ثلاثة من الأدلة الأربعة: الكتاب.. والعقل.. والإجماع، عارضوا القرآن، لأنه بزعمهم أرفع مرتبة من أن يفهمه البشر العاديون، بل لا يحق لأحد غير الأئمة أن يفهم القرآن، وهو إنما نزل كي يفهمه الأئمة فقط، ولذلك علينا أن نبحث عن الأحكام في الأخبار المروية عن الأئمة.. فنحن لسنا مخاطَبين بالقرآن.. وكانت النتيجة أن هناك في الأخبار والأحاديث ما يؤدي إلى المساس باعتبار القرآن (مثل الزّعم بتحريف القرآن) .. لقد أسقطوا اعتبار حجية القرآن.

وأسقطت هذه الحركة الإخبارية حجية العقل.. وقالوا: إن الدين ليس من مجالات تدخل العقل، فعلى الإنسان أن يخطئ عقله.. وإذا ما وجدنا رواية تخالف العقل علينا أن نرفض العقل ولا نسمح له بالتدخل.. ولذلك دعَوا إلى الأخذ بالروايات دون التمييز بين الصحيح والسقيم ". كما أسقطوا حجية الإجماع لأنه عندهم من أدلة أهل السنّة وهو وسيلة استخلاف أبى بكر وتنحية الإمام أمير المؤمنين عن الخلافة بعد الرسول، فكيف تستدلون به؟!. وهكذا لم يبق عندهم من الأدلة الأربعة إلا السنّة، التي دس فيها الوضّاعون من الروايات ما شاؤوا من الأكاذيب. وبذلك تم التركيز على الأخبار فقط. (ص 139- 144)

لقد أفاض الشهيد مطهري في ضرب الأمثلة، التي مثلت تجليات التخلف الفكري والانحطاط الثقافي والشعوذات والخرافات التي سادت الفكر الديني الشيعي، والتي مثلت الثمرات المرة لهذا المنهاج الإخباري. فلقد سادت وشاعت المرويات التي تجعل الناس "يدفعون قسماً من الأموال لمعرفة المراقد المقدسة، لكي يدفنوا بالقرب من قبور أولياء الله، حيث لا يجرؤ الملائكة على تعذيبهم! فالدفن في هذه الأماكن يؤدي إلى تجاوز السيئات.. ويغني عن كل شيء!.. وحتى لو قضينا عمرنا الطويل بدون تقوى وبدون عمل، ثم نوصي أن يحملوا جنائزنا إلى النجف لنُدفَن هناك، فستنصلح أمورنا!..

وسادت المرويات والأخبار التي تجعل "اتخاذ التشيع وحب أهل البيت وسيلة للتهرب من تحمل المسؤلية الإسلامية فالانتماء إلى الإمام عليّ كافٍ للنجاة .. وهنا رواية مشهورة تقول : "حب عليّ سنّة لا تضر معها سيئة!.." ويكفي لضمان السعادة والحظوة عند الله أن يطلق المرء على نفسه اسم شيعي!.. وانتشرت الروايات التي تزكّي الغرور، وتقول "إن الأعمال الصالحة من غير الشيعة غير مقبولة.. وأن الذنوب والسيئات التي يرتكبها الشيعة كلها مغفورة!.."". وكثرت الروايات التي نسجت الأساطير عن أمير المؤمنين علي وعن سيفه الذي شق أحد أبطال اليهود في خيبر نصفين متساويين.. ثم تعداه إلى جبريل فجرحه جرحاً مرض بسببه أربعين يوماً، الأمر الذي أخر صعوده

إلى السماء تلك المدة حتى يعالج جراحه!!.. وانتشرت الروايات الأسطورية عن وقائع كربلاء، واختلاق أسماء لأصحاب الحسين لا وجود لهم في التاريخ.. وأسماء لأعداء الحسين لا وجود لهم في التاريخ! بل واختلاق أسماء لأبناء للحسين لا وجود لهم في الواقع والتاريخ. وانتشرت الروايات التي أدخلت عقائد المسيحية في الفكر الشيعي.. من مثل : "إن الحسين قد عرض نفسه إلى القتل ليحمل على عاتقه ذنوب الأمة"!. ووضعت في "كتاب الكافي" للكليني (328هـ / 941م) " الروايات التي لو أمعنا النظر فيها لوجدناها باطلة". "ويذكر التاريخ شخصا يسمى أبو الخطاب كان ملحداً ومناوئاً للإسلام، ولكنه كان يروي الأحاديث للناس، وعندما افتضح أمره.. اعترف فقال: "لقد وضعت في أخباركم أربعة آلاف حديث!"

ولقد ساد بسبب هذا الانحطاط الفكري "اتجاه مجتمع العلماء نحو عوام الناس.. واهتم العلماء بطبائع العوام، واستقطاب ولائهم، لأنهم الممولون للمؤسسة الدينية.. فكثرت المفاسد والسلبيات الموجودة في أوساط علماء الدين بسبب هذه السلبية بالذات!"[2].

تلك مجرد إشارات لما ساقه الشهيد مطهري من نماذج للأخبار والروايات الخرافية والأسطورية التي أفرزتها حقبة المدرسة الإخبارية والتي مثلت عصور الانحطاط بالنسبة إلى الفكر الشيعي بعد أن استبعد الإخباريون المصادر الأصلية والمعتبرة للفكر الإسلامي: القرآن .. العقل .. والاجتهاد.. والإجماع.

(2) انظر الصفحات: 26، 102، 103، 28، 29، 30، 28، 29، 30، 33، 50، 39، 40، 41، 42، 43 107، 110، 14، 125، 129، 141، 92.

ولقد تحدث الشهيد مطهري عن أن هجران الجيل القديم -جيل الإخباريين- للقرآن الكريم، لا يزال قائماً في الواقع الفكري والعملي الشيعي المعاصر!.. وتعجّب من بقاء هذا الميراث السيئ.. فقال: "عجباً! فإن الجيل القديم قد نزل القرآن وجعله مهجوراً. ولكن (هذا الجيل القديم) يعتب في الوقت نفسه على الجيل الجديد لأنه غير منفتح على القرآن فالقرآن مهجور في أوساطنا ولكننا نطالب الجيل الثاني أن يتمسك به"!.

ثم شرع مطهري في إثبات هذه الحقيقة، فقال: ".. والآن أثبت لكم كيف أن القرآن أصبح مهجوراً بيننا:

لو درس شخص علم القرآن، أي تدبّر في آية كثيراً، وعرف تفسيرها بشكل كامل فما حظ هذا الشخص من الاحترام في أوساطنا؟ الجواب: لا شيء!. أما لو درس شخص كتاب "كفاية الأصول" للشيخ كاظم الخراساني فإن ذلك سيجعله شخصاً محترماً وجيهاً. إذن فالقرآن مهجور فيما بيننا، وبسبب هذا الإعراض عن القرآن فقد أصبنا بهذا التخلف والهوان حتى لتشملنا شكوى رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا".

"غريب حقّاً، لو أن شخصاً قضى عمره في العلوم القرآنية في أهم مراكزنا الدينية فإنه يواجه ألف مشكلة ومشكلة، ويفقد كل شيء الخبز والمعيشة والوجاهة والاحترام، ولكنه لو أنفق عمره في كتب علم الأصول فإنه يحظى بكل شيء، ولذلك فإنك تجد الآلاف من الأشخاص يتقنون كتاب "الكفاية" بكل شروحه وردوده، بينما لا تجد شخصين يعرفان القرآن معرفة صحيحة.

لقد واجه كِلا الجيلين الجديد والقديم "القرآن بالجفاء، فقد جفاه الجيل القديم أولاً ثم جفاه الجيل الجديد" (ص 77، 78).

ولقد يستغرب القارئ، الذي يقرأ هذا الكلام للشهيد مطهري، ويتساءل: كيف حدث ذلك الهجر والجفاء للقرآن وأهله في بيئة إسلامية؟!. وهنا على القارئ أن يتذكر عنوان هذا الكتاب "نقد الفكر الديني" ويتذكر ما كتبه

مطهري عن جناية المدرسة الإخبارية على القرآن الكريم.

لقد استبعدوه من مكانته كمصدر أول للدين.. وزعموا أن الناس غير مخاطَبين به، وأن الأئمة وحدهم هم القادرون على فهمه! فصرفوا عنه الناس.. وصعدوا بجريمتهم إزاء القرآن عندما وضعوا المرويات والأخبار التي ادّعوا فيها أن التحريف والتغيير قد أصاب هذا القرآن الكريم.. بل ونسبوا بعض هذه المرويات والأخبار كذباً إلى بعض الأئمة.. نسبوا إلى الإمام الباقر (57-114هـ/ 676-732م) أنه قال: "ما ادعى أحد من الناس أنه جمع القرآن كله كما أُنزِل إلا كذّاب، وما جمعه وحفظه كما نزله الله تعالى إلا عليّ بن أبى طالب والأئمة من بعده"!.

ونسبوا إليه أيضاً أنه قال:

"ما يستطيع أحد أن يدعي أن عنده جميع القرآن كله ظاهره وباطنه، غير الأوصياء"[3]. ولقد استفاض الإخباريون في هذا المزاعم تجاه القرآن الكريم فقال الشيخ المفيد: (338-412هـ/ 950- 1022م). "إن الأخبار قد جاءت مستفيضة عن أئمة الهدى من آل محمد باختلاف القرآن، وما أحدثه بعض الظالمين فيه من الزيادة والنقصان"[4].

وسار على هذا الطريق المظلم كثير من الإخباريين -من مثل نعمة الله الجزائري (1050-1112هـ/ 1640-1701م)، والمحلبي ومحمد الباقر (418-504هـ/ 1027-1111م)، وبرزا حسين النوري (1320هـ) الذي ألف كتاب جعل عنوانه: "فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الأرباب". بل وزعموا أن روايات وأخبار تحريف القرآن الذي تعهّد الله بحفظه قد بلغت حد التواتر المعنوي فضلاً عن نسبتها المزوّرة إلى الأئمة المعصومين! وتم جمع كل هذا التراث الإخباري في أهم المصادر الإخبارية.. "كتاب الكافي" للكليني (328هـ/ 941م) الذي لقبوه بـ "ثقة الإسلام".

---

(3) الكليني. **الأصول من الكافي**، ج1، ص 228، تحقيق علي أكبر العفاري، طبعة طهران، 1388هـ.

(4) الشيخ المفيد. **أول المقالات**، ص 54، طبعة تبريز.

هكذا .. وباستحضار جناية الإخباريين على القرآن الكريم، نفهم حديث الشهيد مطهري عن الجفاء والهجر الذي أصاب القرآن الكريم في ذلك الفضاء الفكري الإخباري، ولدى الذين ورثوا هذا الفكر. ونفهم كذلك "الثورة الفكرية" التي أحدثتها "المدرسة الاجتهادية" مدرسة مطهري والخوئي (1317-1412هـ/ 1899-1992م) والشيخ الطبرسي.. والفيض الكاشاني (1091هـ) وغيرهم من المجتهدين الذين ثاروا على روايات الإخباريين، وانتصروا لحفظ القرآن الكريم عن التحريف والتغيير والتبديل[5].

وفى هذا السياق، نفهم مغزى كلمات الشهيد مطهري:

"إن تحريف القرآن، عن طريق زيادة أو نقصان كلماته وألفاظه لم يحدث أبداً ولا ولن يحدث في المستقبل أيضاً ولكن لا شيء يقف في وجه عمليات التحريف المعنوي والتفسيرات والتأويلات الخاطئة.. إن هذا الكتاب المقدس يتكفل بصيانة المسلمين شرط أن يتكفل المسلمون من جهتهم بصيانته من التحريف المعنوي أي التفسيرات والتأويلات العبثية" (ص81) مثل التفسيرات الماركسية والمادية التي وجه إليها مطهري النقد والتفنيد.

وهكذا لم يكن مطهري مجرد مجدد وجه سهامه الصائبة إلى المدرسة الإخبارية وإلى جنايتها الكبرى وجريمتها العظمى في حق القرآن الكريم وإنما كان أيضاً عاشقاً لهذا القرآن العظيم فهو الذي قال:

"إنني أشعر بجمال وبلاغة القرآن حقاً، خاصة حينما يقرأ بلحن جميل ولطيف" (ص 109).

-4-

فى إطار النقد للتوجهات الفكرية في الفضاء الشيعي الإيراني، حاور مطهري التيار القومي الفارسي، الذي اتخذ ويتخذ موقفاً سلبيّاً من العربية لغة

(5) انظر: رسول جعفر بان **أكذوبة تحريف القرآن بين الشيعة والسنة**، ص 91- 97 وهو يروي أسماء قرابة ثلاثين من المجتهدين الشيعة ينفون دعاوى تحريف القرآن ولقد صدر هذا الكتاب في طهران سنة 1985م وقمت بالتقديم له وإعادة طبعه بالقاهرة سنة 2006م.

القرآن الكريم ولسان الإسلام لأنها لغة العرب والقومية العربية. وفي هذا المقام، نفى مطهري عن الإسلام أي توجه عنصري، يجعله دين شعب معيّن ويلزِم أتباعه بلغة معيّنة.. لكنه دافع عن العربية كلغة للقرآن، يلزم تعلمها وإتقانها من قبل علماء الإسلام على اختلاف قومياتهم، لفهم الإسلام فهما كاملاً ولجعلها مساحة لوحدة المسلمين.. وعن هذه الأفكار والمقاصد، قال: "إن اهتمامنا باللغة العربية لا يأتي من كونها لغة قومية معينة، بل ينبع من كونها لغة القرآن الكريم.."

إن الإسلام من جهة ليست له لغة خاصة أي أنه لم يفرض على معتنقيه التحدث باللغة العربية فهو ليس ديناً عنصريّاً لكنه من جهة أخرى له لغة خاصة فيما يتعلق بالشعائر الدينية، ولو لم تكن لكل دين لغة خاصة به لما استطاع الاستمرار.. فهذه اللغة هي عامل الوحدة بين المسلمين وهذا أمر إيجابي من حيث الوحدة البشرية، وهو خطوة نحو تحقيق وحدة البشرية" (ص 108-136).

وانتقد مطهري القصور في تعليم علماء الفرس والإيرانيين للغة العربية .. وقال: "إن ما ندرسه من العربية لا ندرسه بشكل متقن، وهو لا ينفعنا في فهم القرآن والتدبر فيه" (ص136).

ولعلاقة التعصب القومي الفارسي بالعداء للعربية بل وأحياناً العداء للإسلام وجه مطهري نقده للنزعة القومية التي تجاوزها الإسلام منذ قرون طويلة.. والتي عادت لتطل برأسها من جديد.. فقال: "إن الشعوب الإسلامية قد اجتازت مرحلة المشاعر القومية منذ قرون ودخلت مرحلة أعلى منها، فالإسلام أوجد منذ قرون وحدة الشعوب الإسلامية على أساس الفكر والعقيدة والأيديولوجيا.

كما أثبت الإسلام في القرن العشرين بأنه قادر على أداء دور فعّال وحاسم في النضال ضد الاستعمار ولكن هناك عداء لا يحصى من الأفراد قد نشط في الفترة الأخيرة في شن حرب واسعة النطاق ضد الإسلام، وذلك تحت يافطة الدفاع عن الوطنية والقومية، وفى توجيه الإهانات للمقدسات الإسلامية تحت

شعار النضال ضد العرب والقومية العربية، وإن ما نشاهده من ذلك في إيران، على صفحات الكتب والصحف والمجلات يدل على أن الأمر ليس صدفة، بل هو خطوة محسوبة ولها أهداف معينة: إن توجيه الشعوب نحو عامل القومية هو خطوة رجعية حقاً". (ص 98، 99).

وفي إطار نقد المقولات والنظريات الفكرية السائدة في الفضاء الشيعي.. انتقد الشهيد مطهري اجترارالشيعة لأحداث الخلافات التي حدثت في صدر الإسلام. وانتقد التركيز على سلبيات التاريخ الإسلامي وإهمال الإيجابيات التي جعلته تاريخاً عظيماً مليئاً بالملاحم التي تصبغه بالجمال، وفى هذا السياق قال: "إن الحديث عن مسألة الخلافة والإمامة التجربة السلبية في القرن الإسلامي الأول، وتكرار الوقائع السلبية في أكثر من مرحلة، لا سيما في العصر الحاضر، حيث يواجه الجيل الجديد أزمة روحية في مجال الدين، يؤدي إلى ضعف الإيمان والابتعاد عن الإسلام.. زلزلة الأفكار بالنسبة إلى الأصول والجذور... لماذا يعمل الآخرون على إخفاء سلبيات تاريخهم، بينما نحن المسلمين على العكس من ذلك على اجترار السلبيات وتضخيمها أحياناً أكثر من الواقع. إن تاريخ الإسلام لا نظير له من حيث كثرة نقاط الجمال والتجليات الإنسانية والإيمانية فهذا التاريخ مفعم بالملاحم وملئ بالجمال والإشعاع.. فوجود بعض البقع السوداء لا يقلل من جماله وعظمته وجلاله". (ص 26-27).

لكن الشهيد مطهري الذي دعا إلى إبراز إيجابيات التاريخ الإسلامي والذي انتقد تكرار اجترار ما فيه من سلبيات -وهى قليلة بالنسبة لما فيه من إيجابيات وملاحم تشع بالجمال والإنسانية- ما كان له أن ينسى أنه أحد أركان التشيع الذي يجد مبرر وجوده في التركيز على ما يراه سلبيات في قضية القيادة والإمامة وحقوق آل البيت وفي التنبيه على ذلك، قال: "لكن لا يجوز غض الطرف عن سلبيات التجربة التاريخية فيما يتعلق بمسألة القيادة لارتباطها بأساس الإسلام. وكذلك سلبيات سحق حقوق أفضل أبناء الأمة، وإلا كان ذلك تضامناً مع سيف البغي"!. (ص 28).

كذلك انتقد مطهري مفهوم "العلم الديني" في الفضاء الإسلامي، وقصره على الفقه والأصول والعلوم التقليدية داعياً إلى اعتبار كل علم يحتاجه المسلمون علماً دينيّاً ذلك أن تقسيم العلوم إلى علوم دينية وعلوم غير دينية ليس تقسيماً صحيحاً.. إن كل علم يفيد الإسلام والمسلمين ويكون ضروريّاً لهم، ينبغي اعتباره علما دينيّاً". (ص 90).

وانتقد كذلك تخلّف الشيعة في الاهتمام بفريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقال: ".. للإنصاف نقول: إن أهل السنّة قد بحثوا في هذا الموضوع علميّاً.. أكثر منا نحن الشيعة، والمعتزلة -وهم من أهل السنة- يعتبرونه من أصول الدين، وليس من فروعه، أما الشيعة فإنهم يعتبرون أن أصول الدين خمسة (التوحيد، العدل، النبوّة، الإمامة، المعاد) وليس منها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ويعدونه من الفروع العشرة للدين (الصلاة، الصوم، الزكاة، الحج، الخمس، الجهاد، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، التولي لأولياء الله، التبرؤ من أعداء الله)."ولا بد أن نعترف بأن هذا الموضوع قد تضاءل وتصاغر في أوساطنا نحن الشيعة، بحيث لم يعد الفقهاء منذ قرون يكتبون شيئاً حوله في كتب الأحكام الفقهية (الرسائل العلمية). (ص181، 182).

وانتقد مطهري كذلك الموقف الفكري من "الثروة" منبهاً على أن الإسلام لا يحتقر المال والثروة ولكنه يعارض تأليهها". (ص 229، 230).

كما انتقد الأوضاع الاجتماعية القاسية التي أدت إلى الفوارق الطبقية الفاحشة والظالمة بين الأثرياء والفقراء.. وقال: "إن انقسام المجتمع طبقيّاً لا ينسجم مع هدف الإسلام لقد انقسم المجتمع إلى طبقتين، إحداهما فقيرة وتعيسة.. والأخرى مسرفة ومبذرة ومغرورة لا تعرف كيف تنفق ثرواتها الهائلة..". (ص 88).

كما نبه على أن المعنى الإسلامي" للتوكل" هو معنى مغاير لما هو شائع عن هذا المصطلح في الفضاء الإسلامي.. فالتوكل حافز على العمل وعلى الشجاعة والإقدام.. وبعبارته: ".. فإن للتوكل في القرآن مفهوماً حيّاً

حماسيّاً، فكلما أراد القرآن أن يدفع بالإنسان إلى العمل وأن ينزع عنه الخوف والرهبة يقول له: "لا تخف وتوكل على الله وتقدم واثقاً بالله عز وجل قل الحقيقة معتمداً على الله وثق بالله ولا تخش كثرة الناس". (ص 220).

ولأن الشهيد مطهري هو أحد أركان المدرسة التجديدية في الفكر الشيعي المعاصر وأحد أركان الثورة التي انتصرت في إيران 1979م كان له موقف متقدم من قضية المرأة فهو يدعو إلى مراعاة التمايز الفطري بين الذكورة والأنوثة، ويعدّ ذلك من العدل في النظر إلى الجنسين، ويدعو كذلك إلى إبراز الموقف الإسلامي الذي أنصف المرأة ورفع عنها الإهانات التي ألحقتها بها مواريث دينية سبقت الإسلام.. وفي ذلك يقول: "إن مراعاة الفوارق الفطرية بين المرأة والرجل هو أكثر تطابقاً مع العدالة كما أنه يوفر السعادة للأسرة والتقدم للمجتمع"...

والإسلام لم يقرر للمرأة والرجل حقوقاً متشابهة في كل الحالات، كما أنه لم يفرض عليهما واجبات وعقوبات متشابهة أيضاً. ولكن ما أقره الإسلام للمرأة من حقوق ليس أقل قيمة مما أقره للرجل لقد خلقا من نفس واحدة ولم تُخلَق المرأة من أحد أضلاع آدم اليسرى.. فليس في الإسلام هذه الأفكار التي تحقّر المرأة وتجعلها كائناً طفيليّاً. وإن أية موهبة طبيعية للرجل أو المرأة تدل على وجود حق طبيعي .. (ص 189، 190، 191).

وفى إطار الفكر الشيعي دافع مطهري عن "التقية" عندما تكون "نوعاً من الدرع الواقي في النضال.. وعندما تعني إنزال أقوى الضربات، وتوقي كل الضربات، فهي تكتيك عقلي في المسيرة النضالية".. لكنه انتقد هذه "التقية" "التي نجدها قد فُرِّغت اليوم من مفهومها الأصلي تماماً، واتخذت مفهوماً مضاداً للنضال وغدت عنده تعنى المرفهين وطالبي الراحة: التهرب من ساحة المواجهة، وترك المعركة لمصلحة العدو، والاهتمام في المقابل بالمناقشات والجدليات الجوفاء" (ص115).

وهناك قضية أخرى من قضايا العلاقة بين الشيعة والسنة، تطرح أحياناً تحت لافتة "التقريب بين المذاهب الإسلامية" وأحياناً تحت لافتة "وحدة

الأمة الإسلامية". وهى قضية حظيت باهتمام الطرفين - السّنّة والشيعة- منذ أربعينيات القرن العشرين، وعاد الاهتمام الشيعي بها بعد نجاح الثورة الإيرانية 1979م ولها تعقد الكثير من المؤتمرات، وتصدر العديد من البيانات والكتب والتصريحات. وحول هذه القضية فجر الشهيد مطهري مجموعة من الآراء التي ستجعل الكثيرين من أهل السّنّة يعيدون النظر في حماسهم لهذه القضية وفي جدوى الجهود المبذولة في سبيلها وفي واقعية الآمال المعلقة عليها:

لقد كشف مطهري في تناوله لهذه القضية عن:

1- أن الشيعة يعانون من العزلة.

2- وأن أسواق العالم الإسلامي مغلقة في وجه المعارف القيمة الموجودة لديهم.

3- وأن المطلوب هو خلق أجواء التفاهم التي تسمح للشيعة بعرض ما لديهم على الآخرين!.

4- وذلك دون التنازل حتى عن "مستحب" أو "مكروه" يمكن أن تضحّي به الشيعة في سبيل الوحدة الإسلامية التي هي فكرة غير عملية من الأساس.

لقد كشف الشهيد مطهري حقيقة مقاصد الشيعة من وراء الشعارات والجهود المبذولة تحت لافتات "التقريب بين المذاهب" و"الوحدة الإسلامية" وبدد الأوهام والآمال التي يعقدها الكثيرون ويعلقونها على هذه الجهود.. وصارح الجميع برأيه الذي قال فيه: "إننا نحن شيعة أهل البيت، نفخر بأننا نتبع مذهب أهل بيت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولا نعتبر أصغر حكم من أحكام الشريعة، حتى المستحب والمكروه يمكن أن يُضحّى به من أجل الوحدة فإننا لا نستجيب لتوقعات الآخرين في هذا المجال كما لا نتوقع من الآخرين أن يتخلوا عن أصل من أصولهم باسم المصلحة من أجل الإتحاد الإسلامي..

إن الاتحاد الإسلامي الذي رفع لواءه خلال القرن الأخير عدد من العلماء.. لا يعني أن تتنازل المذاهب الإسلامية من أجل تحقيق الوحدة عن أصولها العقائدية أو غير العقائدية أو بعبارة أخرى: لا يعنى أن يأخذ

المسلمون بمشتركات كل المذاهب ويدعوا جانباً مختصات كل المذاهب، ذلك لأن هذا العمل لا هو منطقي ولا هو عملي.. إن ما نتوقعه ونأمله: هو خلق أجواء التفاهم الإيجابية التي تسمح لنا كشيعة -لنا أصولنا وفروعنا ولنا الفقه والحديث والكلام والفلسفة والآداب الخاصة بنا- أن نعرض على الآخرين ما نملك لكي لا تبقى الشيعة في عزله وتبقى أسواق العالم الإسلامي مغلقة في وجه المعارف الإسلامية القيّمة الموجودة لدينا.. (ص 162، 163).

فليس المراد: التفاعل بين المذاهب .. أو الالتقاء حول "المشتركات" ولا حتى التنازل عن الهوامش من مثل "المستحبات" و"المكروهات" في الفقه الذي هو كله علم الفروع.. ليس المراد أي شيء من ذلك وإنما المراد: خلق أجواء التفاهم التي تسمح للشيعة بالخروج من عزلتها كأقلية لتدخل أسواق العوالم السُّنّية التي تمثل 90% من الفضاء الإسلامي لتسويق البضاعة الشيعية في الأسواق السنّية...

هذا هو المراد والمقصود من وراء التقريب بين المذاهب .. فقط لا غير!!

والأمر الذي نعتقده هو أن الشهيد مطهري لم يكن "مخترعاً" لهذه المقاصد وإنما كان له ولشجاعته وصراحته فضيلة "الكشف" عن هذه المقاصد والغايات!.

-5-

وإذا كانت هذه هي أبرز القضايا التي تناولها الشهيد مطهري في نقده للأمراض الفكرية الداخلية في الفضاء الشيعي. فلقد تناول الرجل بالنقد والتفنيد تلك الأمراض الفكرية التي جاءت إلى بلادنا في ركاب الغزو الغربي للعالم الإسلامي والتي نمت جزءً من "داخلنا". وانتقد النزعة المادية التي فسرت القرآن تفسيراً ماديّاً وماركسيّاً.. وانتقد التغريب الذي أدى ويؤدي إلى الانهزامية العقائدية أمام كل ما يأتي من الغرب، وقال: "هناك في مجتمعنا انهزامية عقائدية يعشق أصحابها المنطق الديالكتيكى، ويزعمون أن منطق الإسلام هو المنطق الديالكتيكى.. دون التفات إلى أن هذا المنطق الديالكتيكى

يحارب دينهم وإسلامهم ويسعى لاقتلاع جذوره من الأساس.." (ص81).

"وهناك من يتصور إمكانية تحقيق العدالة دون المعنويات ويتصور أن الجوانب المعنوية في القرآن قابلة للتأويل وهم يحسبون أنهم بذلك إنما يؤسسون ثقافة ثورية للإسلام" (ص177). "وهناك مرض استلاب الشخصية.. والزعم بان ما يقوله الإفرنج لا بد أن يكون صحيحاً.." (ص 155).

ولقد انتقد الشهيد مطهري استبدال القوانين الوضعية الغربية بالشريعة الإسلامية معتبراً القرن العشرين الذي تم فيه هذا الغزو القانوني قرن "الكارثة العظيمة" .. فقال: "يعد القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) قرن كارثة عظيمة بالنسبة إلى الفقه والأحكام الإسلامية فقد شهدنا فيه التضحية بالقوانين والأحكام الإسلامية لمصلحة القوانين الأوروبية". (ص 138).

لقد أبصر مطهري دور الاستشراق اليهودي في هذا الصراع الغربي للهيمنة على الإسلام والمسلمين وأشار إلى "أن أكثر من 90% من مقاعد الدراسات الاستشراقية في جامعات العالم، يشغلها اليهود"!.. وتساءل: "فكم لهؤلاء من القدرة على ضرب الإسلام" (ص 116).

بقدر ما تجلت عبقرية الشهيد مطهري في رصد وتشخيص أمراض التغريب والغزو الفكري واستلاب الشخصية الحضارية الإسلامية بقدر ما تجلت عبقريته في وصف العلاج، الذي يتمثل في "الاستقلال الفكري والعقائدي" وعدم الاكتفاء "بالاستقلال الشكلي" الاستقلال السياسي والاقتصادي والاكتفاء باستقلال "التعلم": ففي الاستقلال الفكري والحضاري العلاج لأمراض التغريب لأنه هو "حقيقة الاستقلال" أبصر مطهري هذا العلاج .. فقال:

"إنني أؤكد كثيراً على مسألة الاستقلال ولاسيما الاستقلال العقدي فلو لم نقدم رسالتنا المستقلة للمجتمع فإنه لا ينفعنا إسقاط النظام الملكي، حتى ولو نلنا الاستقلال السياسي والاستقلال الاقتصادي، فبدون الاستقلال الثقافي فإننا سنواجه الهزيمة ولا نستطيع تمييز ثورتنا الإسلامية. علينا أن نثبت أن رؤيتنا الإسلامية لا تتطابق مع الرؤية الغربية ولا مع الرؤية الشرقية وهى لا ترتبط بأي منهما كما لا تحتاج إلى أي منهما.

فما هذا المرض الذي يدفع بعضنا لتكييف الرؤية الإسلامية مع الرؤى الأجنبية؟! إن من يحاول تكييف الإسلام مع المدارس الفكرية الأخرى أو إقحام عناصر من تلك المدارس في الإسلام فهو يخدم الاستعمار شاء أم أبى وإن خدمة هؤلاء للاستعمار هي أكبر من خدمة عملاء الاستعمار سياسيّاً أو اقتصاديّاً، وبالدرجة نفسها تكون خيانتهم للأمة أعظم.. إن من أهم مسؤلياتنا لصيانة الثورة الإسلامية هو الحفاظ على استقلالنا الرسالي والأيديولوجي.. (ص 82، 83).

هكذا تجلى الشهيد مطهري في هذا الكتاب الفذّ الذي أحاط بمشروعه الفكري مجدداً ومجتهداً تصدى بعمق وصراحة ووعى لمخاطر "المدرسة الإخبارية" التي مثلت الجناية الكبرى على مصادر الإسلام والتي صبغت الفكر الشيعي بالخرافات والشعوذات والأكاذيب". وهذا موقف شجاع حبذا لو احتذاه علماء السنة في نقد الفكر الديني بالفضاء السني!. وحبذا لو واصل السير على طريقة علماء شيعة آخرون!.

وتجلى مطهري حكيماً وفيلسوفاً يشخص الأدواء الفكرية ويصف لها العلاجات: وتجلى ابناً باراً لأصالة الفكر الإسلامي التي لا تقبل "الغزو" ولا "التهجين" وإن قبلت التفاعل الصحي والرشيد بين الحضارات من موقع الاستقلال الفكري والثقافي والحضاري: الذي يميز في الفكر العالمي بين "الخصوصيات الثقافية" وبين ما هو "مشترك إنساني عام"[6]. عليه رحمة الله.

---

(6) هناك في ثنايا هذا الكتاب بعض الأفكار التي ربما كانت ثمرة لقلة المعلومات من مثل نقد مطهري لمحمد إقبال ولابن تيمية وللأشاعرة ومثل قوله.. ص66: إن مكة عند ظهور الإسلام لم يكن بها أكثر من سبعة أشخاص يجيدون الكتابة، والواقع يشهد أن كُتّاب الوحي الثمانية العشرون كان منهم واحد وعشرون مكّيّاً فكم من الكتّاب المكّيين الذين أسلموا ولم يكونوا من "ديوان كتاب الوحي" وكم من المكّيين الذين كانوا كُتّابا ولم يدخلوا في الإسلام؟! انظر كتابنا **حقائق وشبهات حول القرآن الكريم**، ص 30-42،طبعة دار السلام، القاهرة، 2010م.